الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً. أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغيّ، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمًّا، وقلوباً غلفاً، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد بالله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ النساء: ١

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران.102

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١

أمَّا بعد؛ فالأخلاق من الأمور التي تُقرها الفِطَرُ السليمة، والعقول المستقيمة، وجاءت الشرائع بالحث عليها، وكثرة التَّزوُّد منها، وجميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا أعظم الناس أخلاقًا، وكان أصحابُهم تبعًا لهم على قسطٍ وافر من حميد الأخلاق وطيبها.

و سنتعرض اليوم لبعض الأخلاق التي يجب على المسلم اتباعها في أزمنة الأوبئة المنتشرة كالتي نعيشها في هذه الأيام.

يعرض للناس في حياتهم عوارض تغير مجرى حياتهم، ومن هذه العوارض ما يحصل من البلايا ومن الأوبئة، ويعظم أثره بحسب اتِّساع مساحته، ومن هذه الآيات ما يُصيب

الناس من الأمراض وما يصيبهم من البلايا، وهذا من آيات الله تعالى وحكمته، والله تعالى آياته متنوعة كمًّا وكيفًا وزمانًا ومكانًا، وهذه الآيات لله تعالى فيها حِكَمٌ بالغة، ومن آياتِ اللهِ عز و جل هذه البلايا والأوبئة التي تحصل إمَّا في بلدٍ معيَّنٍ، أو في دولةٍ معيَّنةٍ، أو في مساحةٍ واسعةٍ من الأرض.

من أعظم الآداب؛ بل هو رأسها وأساسها: تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه -عَزَّ وَجَلَّ.

وقبل ذلك؛ يعلم الإنسان أن ما يكون في هذا الكون من صغيرٍ أو كبيرٍ، من تقدُّم أو تأخُّر؛ كله بأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهو المستحق للعبادة، وعلى العبد إذا حصل من هذه الآيات والعوارض والأوبئة وما شاكلها؛ أن يُفوِّض الأمر إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وبالجملة أن يحرص على اتِّخاذ الأسباب الشرعيَّة، والأسباب الشرعية -والحمد لله- موضَّحة في الكتاب والسُّنة، وفي كلام علماء الأمَّة. فنقرأُ في السُّنَّةِ:

عَنْ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : كُنتُ خَلفَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: " يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكُ كَلماتٍ : احفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احفَظِ الله تَجِدْهُ تجاهَكَ ، إذا سَأَلْت فاسألِ الله ، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ باللهِ ، واعلم أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعت على أنْ ينفعوك بشيءٍ ، لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كَتَبَهُ الله لكَ ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يَضرُّوكَ بشيءٍ ، لم يضرُّوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ الله عليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ " [رواه الترمذيُّ وقال : حديثٌ حسنَ صَحيحٌ]

فحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمرونا بالاستعانة بالله و أننا إذا حفظنا اللهَ نجده تجاهنا و أنه لا يضرنا شئٌ في هذه الدنيا ما لم يكتبه الله علينا. فمن أعظم الآداب الإسلامية التوكُّل على الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وكلما قوي توكل العبد كلما تحصَّنَ، وما أصابه يُضاعف به الأجر.

<u>ومن الأخذ بالأسباب التي يجب على المسلم اتخاذها لتحصليه مراده</u>: لزوم الدُّعاء والضَّراعة لله عز و جل.فكما جاء في عند الترمذي عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: "الدعاء هو العبادة"

وأكثرُ الناسِ دُعاءً هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وكانت ألسنتهم رطبة بذكر الله تعالى ودعائه، والدعاء يزداد عند حصول البلاء والامتحانات.

ومن الأخذِ بالأسباب: أن يفتقرَ العبدُ إلى ربه -عَزَّ وَجَلَّ- وأن يُراجع نفسه وأن يُحاسبها، وأن يتخلص من ذنوبه، وأن تكون توبته لله توبةً نصوحًا، والتوبة النصوح يرفع الله بها البلاء.

و ينقسم الناس في اتخاذ الأسباب لعدة أقسام:

القسم الأول: يُهمل الأخذَ بالأسباب، عندهم لامبالاة، وهذا لا شك تفريط، فالأخذ بالأسباب مشروعٌ في كتاب الله عز و جل و سنةِ نبيه صلى الله عليه و سلم، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥ ﴾ الملك: ١٥

ومريم -عليها السلام- وهي حامل، و قد بُشِّرت بالمسيح عليه السلام و هي في حالة الحمل و الوضع. طلبَ الله عز و جل منها الأخذَ بالأسباب:

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ ﴾ مريم: ٢٥

و في السنة نقرأُ حديثَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه و سلم حين قال للأعرابي الذي تركَ النَّاقة سائبةً متوكل على اللهِ: فقال له: اعقلها و توكل. (أخرجه الترمذي و صححه السيوطي و حسنه الألباني)

فإهمال الأسباب مخالف للنصوص الشرعية؛ بل وحتى الأمور العقليَّة.

القسم الثاني من الناس: يُبالغ في اتِّخاذ الأسباب حتى يصل الحد به إلى التَّنطُّع والوسوسة، وإهمال ما سواها من الدعاء والضراعة، والأذكار والتَّوكُّل على الله عز و جل.

القسم الثالث: من يتوكل على الله -عَزَّ وَجَلَّ- ويتَّخذ الأسباب المشروعة مع تفويض الأمر إلى الله، ولزوم الضراعة له.

ونظر الناس لهذا البلاء يجعل الإنسان يتكيَّف في التعامل معه، فبعض الناس ينظر لهذا البلاء بنظر البصر المجرد، وهذا يفرق عن نظر البصيرة والاعتبار والاتِّعاظ.

وبعض الآيات تدعو إلى التفكر قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ الغاشية: ١٧
و من هذه الآيات التي خلقها الله عز و جل: خلقُ الإنسان، وبسطُ الأرض، ونصب الجبال. و قد جعلَ اللهُ من آياته ما يُخَوِّفُ بها عباده، قال تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الإسراء: ٥٩

ومن ضمن هذه الآيات الخسوف والكسوف، فقد جاء في الحديث: «إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُما مِن آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِما عِبَادَهُ»[1]

ومن حِكَمِ الله عز و جل عند وقوع البلاء، أن يعلم الإنسان عظمةَ وقوَّةَ الخالقِ عز و جل و ما يُقابلها من ضعف وذُل وفقر المخلوق لخالقه تعالى.

وعند البلاء يعلم الإنسان بطلان مَن عُبِدَ من غيرِ الله، وأنَّ الملجأَ الوحيد في أوقات الشِّدَةِ هو الله عز و جل.

[1] صحيح مسلم (901).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ يونس: ٢٢

وبعض الأوبئة والنوازل تُذكر العبدَ بيوم القيامة، و الفزع والهلع و الخوف الذي سيُصيب الناس يومئذ قال تعالى:

﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ الحج: ٢

فعند نزول البلاء يحصل للناس -في الغالب- غفلة عن أموالهم، وخاصَّة إذا كان البلاء متعلق بالصِّحة مثل الأوبئة.

فالإنسان يترك متجره، ويترك عمله، ويتحصَّن بالأسباب التي تحفظ له -بإذن الله- صحَّته، كذلك يوم القيامة إذا فزع الناس يتركون مصالحهم وأموالهم وأولادهم؛ كل مشغولٌ بنفسه.

و للأسف نرى في بعض الأحيان بعض المخالفات الشرعية التي تحصل عند كل نازلة تنزل بالناس و منها ما يحدث في وقت انتشار البلاء بشكلٍ عام و أيضاً الوباء الذي نعاصره في هذه الأيام.

من هذه المخالفات التي تحصل إذا حلَّ البلاءُ بإنسانٍ: فإنَّ بعض الناس يأخذ بعض الأخبار في البلاء بالتَّندُّر والتَّفكُّه والإضحاك والسُّخرية، مِن مَن أُصيبَ بالبلاء والواجب عليه أن يعتبر وأن يتَّعظَ بمصابِ غيرهِ و يسألَ الله السلامة. فإنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أباح زيارة المقابر للإتعاظِ فقال: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فإنَّها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ»[2]، فإن رأى المسلم أحدَ الخَلقِ أُصيبَ بأيِّ نوعٍ من أنواع البلاء، فمن الواجب عليه أخذ العِبرةِ لا التَّنَدُرِ

[2] صحيح الجامع للألباني (3577).

و السخرية، فإنَّ اتخاذ الضحك والسخرية من مصابِ الأخرين ليُنافي الآداب الشرعية التي أُريدَ للمسلم أن يتمثَّل بها.

و من هذه المخالفات التي تحصل حين وقوع البلاء: الإرجاف[3] والإشاعات والتَّخويف، حتى في بعض الأوقات تكون الإشاعات والتَّخويف أشدُّ من البلاءِ نفسِهِ؛ بل هي بلاءٌ أعظم من البلاء الأصلي، فتجد -مع الأسف- بعض الناس إذا حصل البلاء لا يروي ولا يكتب ولا يأتي بخبر إلا ما يُلقي الرُّعبَ في قلوبِ الناسِ. والآداب الشرعية والعقليَّة والعرفيَّة أن الإنسان في مثل هذه المواطن يُدخل التَّفاؤل في نفسه و نفوس الأخرين، ليس بقصد إهمال الأمور الأخرى من الأخذِ بالأسبابِ و غيرِها، ولكن يُغلب جانب التَّفاؤل في أنَّ هذه الغُمَّة ستزول بإذن الله تعالى.

و أيضاً من هذه المخالفات التي تقعُ في زمن البلاء: الخروج عن الحد الشرعي في اتخاذ الأسباب، حتى أن بعض الناس في اتخاذ الأسباب يترك أمورًا شرعيَّةً واجبةً عليه في سبيل التحصُّن والتَّحرُّز، ولا شكَّ ولا ريبَ أن الأسباب التي تُخالف الآداب الشريعة ليست أسبابًا، بل هذه موبقات ومهلكات، والله تعالى إذا أمر باتخاذ الأسباب، ثم جاء الشخص وغلَّبَ جانب السبب وعطَّل ما أمره الله تعالى به لغير مصلحة؛ فلا شكَّ أن هذا ليس من الآداب الإسلامية.

وبعض الناس الآن إذا كلَّمته لا يتكلَّم في التوكل ولا في الدعاء ولا في تعليق الأمور بالله عز و جل، ولا في حسن الظن بالله تبارك و تعالى؛ فهذه كلها عنده لا اعتبار له، المهم أن يتكلم في كيفية التَّحرُّز؛ وهذا لا شك أنه من المخالفات التي يجب تجنّبها.

و من الأسباب التي يُتَّقى به هذا الوباء أولاً التوكل على الله عز وجل و ثانياً الدعاء

و ثالثاً التوبة: كما قال العباس بن عبد المطلب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما استسقى به الصحابة قال: "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولا ينكشف إلا بتوبة".

[3] إِحْدَاثِ الخَوْفِ و الرُّعبِ في نَفْسِه

رابعاً الحفاظ على على الأذكار الصباحيَّة والمسائيَّة والمناميَّة، فهذه حصن حصين قوي، فإذا أصبح الإنسان يستفتح صباحه بالأذكار، وإذا أمسى ختم يومه بالأذكار، إذا أراد النوم فارقَ عالم اليقظة بالأذكار، وهناك أذكار عامَّة يلزمها في كل وقت، وتزداد في النوازل.

خامسًا: الاستغفار

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢ ﴾ هود: ٥٢

فالقوة المذكورة في الآية قد تشمل القوة البدنيَّة والقوة والإيمانيَّة؛ فهي عامَّة في كل قوَّة. و بما أن الأوبئة توهن الأجسام فإن الإستغفار قد يزيد قوتها.

وفي سورة نوح -عليه السلام- نقرأُ عن فوائد الإستغفار. قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ ﴾ نوح: ١٠ - ١٢

وفي الحديث الصحيح قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ في صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»[4]، وفي لفظ بصيغة المبني للمفعول: «طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ في صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارٌ كَثِيرٌ»[5].

وكذلك أيضًا الأدعية التي تنص على رفع البلاء والهم والغم، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[6]، وقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ البقرة: ١٥٦

وهلم جرًا، وكتب الأذكار -والحمد لله- مليئة بمثل هذا.

---

[4] رواه ابن ماجه (٣٩٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٩٣٠).

[5] صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1618).

[6] أخرجه الترمذي (3524) واللفظ له، وابن السني في ((عمل اليوم والليلة)) (337)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (557/7).

وينبغي للمسلم أن يَعتَبِرَ، وقد جاء الآيات في كتاب الله عز و جل بالنَّظر و التَّفَكُرِ في خلق الله، قال تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ آل عمران: ١٣٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الأنعام: ٥٠

فتوظيف كل ما يراه الإنسان فيما يعود عليه بالنفع يزيد في إيمانه إيمانًا، ويزيد في تَبَصُّرِهِ تبصُّرًا.

وعلى الإنسان أخذُ العبرة إذا رأى البلاء واقعاً، ورأى أنه في مصيبة ونازلة كبرى؛ فعليه أن يتذكر مَن هو أشد منه مَصابًا، حتى يقوَى إيمانه وتقوَى عزيمته.

وينبغي أن يعلمَ أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب ولا حسب، وأن حكمة الله تعالى بالغة في الكمال أعلاها، وفي الحسن مُنتهاها.

وعند البلاءِ يعلمُ الإنسانُ أنه لا ينفعه إلا عمله الصالح، و دُعاؤه وتوبته إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ فإن أضاف إلى ذلك حسن الظن بالله -عَزَّ وَجَلَّ- فلن يرى من الله إلَّا ما يُطَمئِنُ قلبه، ويشرح صدره، ويُقِرَ عينه.

وهذه النوازل نزلت في القرون السابقة، وفي عصور الصحابة، فالصحابة تعاملوا مع طاعون عِمَواس التعامل الشرعي، فالصحابة -وهم أتقى الناس لله بعد الأنبياء والرسل- وقع الطاعون في عهدهم، هذا و مع قوَّةِ يقينهم وإيمانهم وعلمهم بالله -عَزَّ وَجَلَّ- كانوا من أعظم الناس لفعل الأسباب الشرعيَّة، وكما نعرف أنه لَمَّا أراد عمر دخول الشام وأُخبر بالوباء الذي انتشر وفشا وشاع، فتردَّدَ واستشار الأنصار والمهاجرين، ثم جاء ابن عوف وأكَّد ما رآه عمر وهو عدم القدوم إلى بلد فيها طاعون.